

الاغتراب في رواية (القنافذ في يوم ساخن) للروائي فلاح رحيم

Alienation in the novel (Hedgehogs on a Hot Day) by Falah Rahim

المدرس: صادق عباس هادي الطريحي

كلية التربية/ جامعة القادسية/ جمهورية العراق

Sadiq Abbas Hadi Al-Turihi

College of Education/Al-Qadisiyah University

المستخلص :

يعد الاغتراب ظاهرة اجتماعية قديمة مذ تكونت المجتمعات البشرية، فضلاً عن حضورها الواسع في الأدب الحديث سرداً وشعراً، ويرمى هذا البحث إلى دراسة الاغتراب في رواية (القنافذ في يوم ساخن) لاعتقاد الباحث أنّ هذه الظاهرة تبدو واضحة فيها، وأنّ الكاتب استطاع أن يجسد فنياً طبيعة ما تتسم به الشخصيات من تعارض، وشعور بالإحباط والضياع.

قسم البحث على مقدّمة وثلاثة مباحث، عرض الباحث في المقدمة تلخيصاً للرواية، والأسباب الفنية التي دعت الباحث لاختيارها للبحث، مع تعريف بالمؤلف واشتغالاته الأدبية، أمّا المبحث الأول فكان في مفهوم الاغتراب وتجلياته، وبعض الإشارات إلى الاغتراب في الأدب الروائي العربي، وجاء المبحث الثاني في مظاهر الاغتراب ومعطياته الفكرية والنفسية، مثل الاغتراب الذاتي، والمكاني، وأمّا المبحث الثالث فقد درس التقنيات السردية ووظيفتها في إبراز هذه التجربة، مثل العتبات النصية، واللغة الروائية، وغيرها. وقد توصل البحث في خاتمته إلى عدد من النتائج، منها ضعف الفرد في الغربة، وتحكم السلطة بحياته الخاصة، وغالباً ما يناقض الفرد نفسه دون أن يشعر.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الرواية العربية، الروائي فلاح رحيم

Abstract:

Alienation is an ancient social phenomenon since human societies were formed, in addition to its wide presence in modern literature, narrative, and poetry. the researcher intended to discuss alienation in this novel because he believed it's an obvious characteristic feature of it, and the author shows artistically the character features of conflict, frustration, and loss.

The research consists of an introduction and three sections. the researcher presented in the introduction a summary of the novel and the technical reasons that prompted the researcher to choose it for research, along with an introduction to the author and his literary occupations. the first section shows the manifestations of alienation and some of its signs in Arabic literature. The second section was about intellectual and psychological data, such as self- and spatial alienation. While for the third section, studied narrative techniques and their function in highlighting this experience, such as textual thresholds, fictional language, and others. In its conclusion, the research reached a number of results, including the weakness of the individual in alienation, and the authority's control over his private life, and often the individual contradicts himself without realizing it.

Keywords : Alienation, the Arabic novel, novelist Falah Rahim

المقدمة: ملخص الرواية والأسباب الفنية لاختيارها

تبدأ الرواية^١ بوصول سليم كاظم المتخصص في الأدب الانكليزي إلى مسقط، قادماً من الصحراء الليبية للعمل تدريسيّاً في كلية التربية بجامعة صور على خليج عمان، ويكتشف أنّ في قسم اللغة الانكليزية أكثر من أربعين أستاذاً قدموا من مختلف أرجاء العالم، يكلف سليم كاظم في بداية السنة الدراسية بمهمة استقبال الأساتذة الجدد، فيكتشف أنّ الأحداث الخارجة عن إرادته مهدت له سبيل اللقاء بساندرا، المدرسة الخمسينية القادمة من أستراليا " المؤكد إن استقبالي لها كان مصادفة، والمؤكد إنه صار سبباً لكل ما حدث فيما بعد ... " (الرواية ص ٩٤) تسير أحداث الرواية سيراً بطيئاً، فنكتشف من خلال الحوارات مدى التنافر السياسي والطائفي بين عدد من الشخصيات، ونتعرف أكثر إلى سليم كاظم الذي يتابع أخبار العراق من خلال الرسائل التي تصله عبر الشبكة العنكبوتية من اخته إنعام " مضى ربع قرن على العراق لم يخل يوم من الموت او الألم... حتى صارت هذه الكوارث ركناً مكوناً من اركان الوجود الشقي ولكن هل تنجح محاولتي الافلات من ربكة هذا الوجود؟ هل يمكن للمنفى ان يستحم بماء المغامرة " (الرواية ص ١٥٣) ولكي يقلل من غربته في المنفى يقوم بمغامرة جنسية في مسقط، ويحاول إقامة علاقة صداقة على الطريقة الغربية مع أريكا القادمة من بريطانيا، لكنه يفشل في ذلك، ولكن ساندرا تستطيع غوايته، وتجعله يمارس الجنس معها في شقته في عطل نهاية الاسبوع. وفي أثناء هذه الأحداث أيضاً نتعرف عن طريق سليم كاظم فقط إلى صديقه شهاب زيدان، القادم من المنفى البلجيكي للعمل في وزارة الثقافة في العراق. وبعد منتصف الرواية بقليل تموت أريكا بحادثة غامضة، إذ كانت مع شلة من الأصدقاء يسكرون في الليل على سطح البناية فتسقط من السطح إلى الأرض ثم تفارق الحياة بعد قليل، ثم تكتشف الوزارة أنّ أحد الأساتذة البريطانيين وهو أريك جونسون قد جاء بشهادة مزورة، لكنّ الكلية لا تستطيع اتخاذ أيّ إجراء قانوني ضده. ثم يكتشف سليم كاظم أنه مصاب بمرض جنسي (الهريز) الذي ينتقل بطريقة العدوى نتيجة الاتصال الجنسي مع ساندرا التي يكتشف أنها مصابة بالمرض دون أن تخبره، فيزداد غضباً عليها. وقبل الاعصار بقليل يكشف أريك جونسون لسليم كاظم بوصفه منسقاً للقسم أنّ الدكتور زكي خليل قد قام بالكتابة بنفسه في دفترين للطلبة بقصد الغش، ورغم تهديد زكي خليل لسليم كاظم لكن سليم ينقل الدفاتر إلى رئاسة القسم، ويطلب فتح تحقيق في ذلك، وبعد إعصار غونو يضطر سليم كاظم إلى الاستقالة لأنّ علاقته المريبة مع ساندرا مكشوفة للعمادة عن طرق عدة تقارير موثقة، وأنّ الكلية لم تجد الدكتور زكي خليل مذنباً!! وفي الفصل الأخير من الرواية يكتشف سليم كاظم وعن طريق مكالمة هاتفية مع أحد الأصدقاء أنّ شهاب زيدان قد اغتيل بمسدس كاتم على الطريق السريع في بغداد.

^١ رحيم، فلاح، القنافة في يوم ساخن، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٢.

اختيرت الرواية للدراسة؛ لأنها تتحدث عن واقع مزامن للباحث والكاتب مما يساعد على تفهم الأحداث بسهولة، وفيها إدانة للقتل الطائفي وللتهجير القسري لأطياف المجتمع جميعاً الذي تزايد في السنوات ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ حيث تدور أحداث الرواية، فضلاً عن إدانتها لضعف الدولة أمام المليشيات الطائفية، وهي تتناول تعقيد وضع الانسان، وأثر الأحداث السياسية في سلوكه وفي علاقته مع الآخرين، وتكشف عن اللامرئي في انفعالاته، وقد كتبت بلغة فصيحة خالية من العامية العراقية مما يقربها إلى أكثر عدد من القراء العرب، فضلاً عن لغتها الشعاعية وقد خلت الرواية من الأخطاء النحوية والاملائية، وساعدت علامات الترقيم على توصيل الرواية بسهولة، وحرص المؤلف على كتابة بعض الكلمات التي يخطئ الكثير منا بكتابتها بصورة صحيحة محرقة، ولأنّ الرواية هي الاصدار الأول للكاتب في المجال الروائي، ولأنها حديثة العهد جداً ولم يكتب عنها بعد من المقالات سوى ثلاث مقالات صحفية، فقد اختارها الباحث ليسجل بصمته عليها. ولكنّ هذه الأسباب لا تمنع الباحث أن يقول، إنّ الرواية التي بلغت صفحاتها ٤٩٢ صفحة، وبشخصياتها التي زادت عن الأربعين شخصية كان من الممكن أن يختزل منها بعض الفصول التي لا تؤثر في بنائها الروائي، مثل الفصل التاسع الذي يتحدث عن اجتماع لمناقشة مشكلات تدريس اللغة الانكليزية، أو الفصل الذي يدور في حوار في مكان عام بين سليم كاظم وزكي خليل حول الوضع في العراق، ومحاكمة الدكتاتور، وقد تكرر مثل هذا الحوار في أكثر من مكان في الرواية، وكان من الممكن أيضاً حذف بعض الشخصيات، مثل شخصية الدكتور حاكم التي لم تضيف شيئاً إلى البناء الروائي، وحذفها لا يخل بمسار الأحداث، لذلك لا يمكننا تقبل قول الناقد حسن ناظم الذي كتب على الغلاف الداخلي المطوي للرواية " وأبرز ما يثير الإعجاب بها أنها على الرغم من سعتها، ليس فيها عبارة واحدة زائدة "

والكاتب فلاح رحيم ولد في العراق، محافظة بابل، عام ١٩٥٦. حصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الإنكليزية من كلية الآداب، جامعة بغداد، عام ١٩٧٨، وعلى الماجستير في الأدب الإنكليزي من كلية الآداب، جامعة بغداد، عام ١٩٨٩ عن رسالته " اللغة موضوعاً وتقنية في قصائد ديLAN توماس ". درّس الأدب الإنكليزي واللغة الإنكليزية في كلية التراث الجامعة في بغداد - العراق، وجامعة الفاتح في طرابلس - ليبيا، وترجم إلى العربية عدداً من الكتب والروايات منها: - ماريو والساحر، رواية، توماس مان. كتاب الأقلام، عدد ٥، ١٩٨٧. تحت غابة الحليب، مسرحية شعرية، ديLAN توماس. كتاب الثقافة الأجنبية، ١٩٨٩. فضيحة، رواية، شوساكو أندو، دار المأمون، بغداد - العراق، ١٩٩١. - الزمان والسرد، بول ريكور (بالاشتراك مع سعيد الغانمي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٦. محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، بول ريكور، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠. وغيرها من الكتب والمقالات.

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب والاعتراب في الأدب الروائي

تأتي كلمة الاغتراب Alienatio في أصلها اللاتيني بمعنى تحويل شيء ما لملكية شخص آخر، وتأتي أيضاً بمعنى الانتزاع أو الازالة^٢. أما في العربية فقد وردت كلمة (الاعتراب) في المعاجم العربية مرادفة للغربة، جاء في لسان العرب، الغربة: التروح عن الوطن، والاعتراب والغريب هو البعيد عن وطنه واعترب الرجل: تزوج من غير أقربائه^٣. وفي المعجم الوسيط وردت الكلمة ضمن كلمة (غرب) ف غَرِبَ الشيءُ غَرَباً : اسودَّ، وغَرِبَ عن وطنه غربةً وغربةً ابتعد عنه، واعترب وتغرب: نزح عن الوطن^٤.

والاغتراب ظاهرة اجتماعية مازالت موجودة منذ تكونت المجتمعات البشرية، ويرى اللاهوتي الفرنسي (تيليش) أنَّ الاغتراب قد التصق بالوجود الانساني منذ الخطيئة الأولى حيث خرج آدم وحواء من الجنة، وأنَّ مفهوم الاغتراب يعادل في المصطلح اللاهوتي الخطيئة بوصفها حالة من الغربة، والاعتراب هو المفارقة بين الله والانسان^٥. وقد تنبه لها الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وحاولوا التقليل من تأثيراتها من خلال تشريع القوانين التي تحترم خصوصية الفرد، وتضمن تأمين الدولة لحريته، لذلك يؤمن توماس هوبز، أنَّ هدف البشر التوافقين بطبيعتهم إلى الحرية من خلال فرض القيود عليهم في إطار الدولة يكمن في التحسب لما يضمن المحافظة على أنفسهم وتحقيق الرضا في الحياة والخروج من حالة الحرب البائسة (نتيجة لعدم توافقهم مع المجتمع) وتجعلهم يحترمون تعاقدهم الاجتماعي^٦. وقدم ريتشارد شاخنت في كتابه عن الاغتراب صوراً متعددة عن المصطلح: منها الاضطراب العقلي، مثل فقدان الوعي أو الصرع، وكذلك بمعنى الغربة بين البشر وفتور العلاقات الودية بين مجموعة من الأشخاص ثم انفصالهم، أو جعل شخص ما مكروهاً^٧، وعلى هذا الاساس يمكن القول: إنَّ الاغتراب " ليس مجرد حالة مرتبطة بمجتمع معين أو تنظيم اجتماعي اقتصادي بالذات، وانما هي (ظاهرة) يمكن أن ترصدها وتدرسها في كل أنماط الحياة الاجتماعية وإنَّ كانت تظهر بغير شك نتيجة لتوافر شروط وظروف معينة. كما أنَّ (شدة) هذه الظاهرة ومدى شيوعها تختلف باختلاف هذه الثقافات والاضاع الاجتماعية "^٨.

ومع ذلك فمازال مفهوم الاغتراب غامضاً، ونادراً ما يتفق الباحثون على تحديده، فقد توصل الأمريكي ملفين سيمان إلى تحديد خمسة مفاهيم للاغتراب هي: العجز، وفقدان المعايير، وغياب المعاني، والالانتماء أو الاغتراب

^٢ شاخنت، ريتشارد شاخنت: الاغتراب، ت كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٦٣.

^٣ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، ط ٣، مج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٦٣٩.

^٤ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ٦٤٧.

^٥ ط شاخنت، ص ٦٥ و ٢٧٥.

^٦ هوبز، توماس، اللفيثان، ت داينا حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والاعلام (كلمة) ودار الفارابي، ٢٠١١.

^٧ ط، شاخنت / ص ٦٦.

^٨ العدوان، د. احمد : الاغتراب، مجلة عالم الفكر، ١٩٧٩، مج ١٠، ع ١، ص ٥.

الذاتي. وتوصل باحث أمريكي آخر من جامعة هارفرد إلى أنّ مفهوم الاغتراب يتألف من خمسة توجهات متشابكة هي: التركيز على الذاتية، وعدم الثقة، والتشاؤم، والقلق، والاستياء. ومن الواضح أنه ليس بينهما أي عناصر مشتركة^٩. ويرى الباحث أنّ المصطلحات التي قدمها بعض الباحثين العرب لمفهوم الاغتراب لا تتعدى التعريفات التي قدمها ريتشارد شاخنت في كتابه الآنف الذكر.

وتشيع ظاهرة الاغتراب في الأدب شعراً، وسرداً، عند الأمم جميعاً، إذ يمكننا تلمس ظاهرة الاغتراب في ملحمة كلكامش السومرية، إذ يكتشف كلكامش في النهاية غربة الانسان وفنائه في هذا العالم، على العكس من الآلهة التي استأثرت بالخلود. ويكتشف أوديب في مسرحية سوفوكليس أنه مغترب في الحياة التي رسمت الآلهة مصيره فيها قبل أن يولد. وجسدت شخصيات مسرحية مثل هاملت، أو الملك لير عند شكسبير نموذجاً للإنسان المغترب عما حوله، وفي روايتي (المسخ) و(المحاكمة) لفرانز كافكا تتجلى غربة الانسان وأزماته الداخلية حتى تحول إلى صرصار، أو في ذهابه بنفسه إلى محاكمة لا يعرف فيها تهمته، ومازالت أعمال كافكا تثير الكثير من التساؤل والتأويل.

وقد تنبّه عدد من النقاد إلى هذه الظاهرة، ففي العام ١٩٥٦ نشر الناقد الانكليزي كولن ولسون كتابه الشهير (اللامنتمي) حل فيه عدداً من الروايات مثل رواية هنري باربوس (الجحيم) و(الغثيان) لسارتر و(الغريب) لألبير كامو وبعض شخصيات أرنست همنغواي، واليوت في مجموعاته الشعرية (الأرض اليباب) و (أغنية حب ج . بروروك) ونيثشة، ودستوفسكي فضلاً عن تحليله لعدد من الشخصيات في واقع الحياة (ت. س لورنس، فان كوخ، نيجنسكي) ليتوصل إلى أنّ اللامنتمي يرغب في التخلي عن صفته ويريد أن يكون متوازناً، يريد أن يفهم الروح الانسانية وينجو من التقاهة، ولكي يفعل ذلك عليه أن يعرف كيف يعبر عن نفسه وامكاناته، وهنا يظهر اكتشافان، خلاصه يكمن في التطرف، وفكرة طريق الخلاص غالباً ما تأتيه في الرؤى أو في لحظات التركيز^{١٠}.

أما في الأدب العربي، فيمكننا الإشارة إلى الكثير من الأعمال الروائية والقصصية التي تجلّى بها مفهوم الاغتراب، فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية، فضلاً عن التحولات الثقافية التي حملت الكثير من النظريات الأدبية والنقدية، والأعمال الروائية والمسرحية التي تأخذ نمطاً جديداً، مثل الرؤى الكابوسية، أو الشعور بالكآبة والإحباط، أو مسرح اللامعقول مثلاً، وقد أفرز هذا التحول شعوراً بغربة المثقف وهامشيته إزاء السلطة السياسية والعسكرية التي استأثرت بالتخطيط والتشريع والرقابة وطالبت المجتمع

^٩ بركات، د. حليم، الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٣٦.

^{١٠} ولسون، كولن، اللامنتمي، ت أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٤، ص ٢٤١.

بتنفيذ مشاريعها أولاً. وأفرز هذا الواقع أيضاً تحولاً في المزاج الابداعي عند الكتاب العرب، سواء من خلال تناول الموضوع بصورة رمزية (أولاد حارتنا) أو (الطريق) عند نجيب محفوظ أم من خلال تحطيم الشكل السردى التقليدي مثل رواية (خمسة اصوات) لغائب طعمة فرمان. ويعد يحيى حقي في رواية (قنديل أم هاشم) من أوائل الروائيين العرب الذين عالجوا مشكلة الاغتراب من خلال أزمة المثقف الذي يعجز عن التكيف مع الواقع الذي يعيش فيه. ومنذ الخمسينيات وحتى اليوم، مازالت الأعمال الروائية أو القصصية سواء العربية أم العراقية تعرض لأزمة المثقف وصراعه مع السلطة أو الواقع الاجتماعي أو المنفى، كما نرى عند نجيب محفوظ في (ثرثرة فوق النيل) مثلاً، وعبد الرحمن منيف في معظم أعماله، والطيب صالح في (موسم الهجرة إلى الشمال) وجبرا ابراهيم جبرا في (البحث عن وليد مسعود) و(السفينة) وغسان كنفاني في (رجال في الشمس) وصنع الله إبراهيم في (اللجنة) وإنعام كججي في (الحفيدة الأمريكية) وفلاح رحيم في (القناذف في يوم ساخن) وهي موضوع البحث.

المبحث الثاني: مظاهر الاغتراب ومعطياته الفكرية والنفسية.

تكشف قراءة (القناذف في يوم ساخن) أنّ شخصيات الرواية جميعاً تعاني من حالات اغتراب متعددة، ولكن مع تباين في نوع الاغتراب ودرجته، ويبدو جلياً للباحث أنّ الاغتراب هو السبب الأول في توجيه أفعال الشخصيات، وما تتخذه من قرارات، ورأى الباحث أنّ شخصيات الرواية جميعاً تعاني من الاغتراب عن الذات، والاعتراب المكاني، والاعتراب العاطفي، والاعتراب الاجتماعي، والاعتراب السياسي، والاعتراب الثقافي. ولأنّ سليم كاظم هو الراوي الوحيد للرواية، فإننا سنتعرف إلى الشخصيات الأخرى وحالات اغترابها عن طريقه فقط. ومن الواضح أنّ الشخصيات جميعاً تعاني من الاغتراب الذاتي، وهو سياق يتعلق بما يستشعره الفرد من غربة في العالم وفتور أو جفاء في علاقته مع الآخرين وافتقاد الاحساس بالعلاقة بينهم وانعدام الشعور بالقدرة على تغيير الواقع أو على اكتشاف قيمة في الحياة وغالباً ما يكون الاغتراب النفسي نتيجة للغربة المكانية وما يترتب عليه من احساس بالضيق^{١١}.

وأول شخصية تعاني من حالة الاغتراب الذاتي هو سليم كاظم الذي يعاني من حالات اغتراب أخرى أيضاً، ولأنه الراوي للرواية، فإننا نتعرف إلى اغترابه المكاني أولاً. فمن الواضح أنّ سليم المولود في بغداد، وهو الذي عمل في أحد حقول النفط في الصحراء في ليبيا، صار يعاني من الاغتراب المكاني إذ "يشكل الخارج والداخل انقساماً جديلاً ولكن هندستها الواضحة تعمينا بمجرد أن نضعها في مستوى مجالات الاستعارة، ولهذا الجدل حدة

^{١١} رجب، محمود، الاغتراب سيرة ومصطلح، القاهرة، دار المعارف، ط٤؛ ١٩٩٣، ص ٣٥.

جدل النعم واللا التي تحسم كل شيء ^{١٢} ويبدو الاغتراب المكاني واضحاً عن طريق أول جملة في الرواية : " لكل مدينة طريقتها الخاصة في استقبال الغرباء..." ص ١١. " اسئلة كثيرة بقيت معلقة، لكن انشغالي باحتمالات المحطة الجديدة في اغترابي..." ص ١٢. وقد اكتشف سليم كاظم ذات يوم وهو في ليبيا، في غابة من اشجار الكالبتوس إنه يردد أحد أبيات الشاعر الانكليزي الرومانسي شيلي، فأدرك حينئذ " أن للعالم سحراً متجدداً يطمره غبار مشاغلنا البشرية الخانق " لذلك فهو في حاجة " إلى العودة إليه ... بعيداً عن البشر " (الرواية ص ٣٩) ويذكرنا الراوي هنا بطبيعة الرومانسيين الميل إلى الذات والعودة إلى الطبيعة لحمايتهم.

وعندما يتعرف سليم إلى أول شلة من العراقيين تلتقي في مقهى الخروف التركي سرعان ما يكتشف خيبته من الأصدقاء، فقد استقبله الدكتور حاكم زميله في القسم بابتسامة فاترة، ومن الواضح أنّ الاختلاف السياسي بين سليم والشلة كان أحد اسباب فتور العلاقات بينهم، فضلاً عن عزوبية سليم (اغتراب اجتماعي) مع " سبب آخر يدفع معظم العراقيين المقيمين في بلد غريب إلى الحذر من التقارب مع قادم جديد " (الرواية ص ٥٦) لذلك قرر " أن حواراً مع كتاب أو النفس أجدى " من الشلة ، خاصة بعد أن اكتشف أيضاً أنّ زميله البريطاني . اللبناني جورج يعاني من هلوسات عن التأريخ السري للعالم والكنيسة. ويعاني جورج من الاغتراب الذاتي والعاطفي، ويتمثل الاغتراب العاطفي في ميل (الأنا) إلى العزلة التي تتهددها دائماً. ولكن (الأنا) تعمل باستمرار على مواجهة عزلتها، شريطة أن تحافظ على خصائصها وحريتها من جهة، وأن (تعلو على نفسها) ^(١٣) من خلال الاتحاد ب (أنا أخرى) تفهمها فهماً صادقاً من جهة أخرى، وبكس ذلك كان الانعطاف نحو الآخر السلبي سبباً في تعمق العزلة. وثمة وسائل يلجأ إليها الإنسان للتغلب على عزلته منها: الحب والصداقة والفن. ^(١٤) فالحب على وفق هذا التوصيف منهج تعويضي يعتمد المغترب للخروج من عزلته، ولكن إخفاقه في الحب سيقوده إلى اغتراب عاطفي يضاف إلى اغترابه الآخر. وعلى الرغم من جنسيته البريطانية وديانته المسيحية، يصف الحياة في بريطانيا خلال حوار مع سليم بأنها: " قشور لا جوهر فيها " ويضيف: " هنالك احتفاء بالمظاهر، بالمتع الحسية، بالزائل التافه، وهنالك استهانة بالمشاعر العميقة للإنسان ... " ولكي يخفف جورج من حدة الاغتراب في داخله فإنه يسعى " إلى القيم والالتزامات والأخلاق التي بدونها يتحول الانسان إلى حيوان أعجم. " (الرواية ص ٦٨) وفي النهاية يفشل في الحصول على امرأة تحبه ويحبها على الرغم من بحثه المتواصل عنها. ولكن سليم وفي نهاية الحوار يشكك مع نفسه " أن يكون ثمة الكثير مما يمكن أن يجمعنا في حديث شيق، وقد كنت على خطأ "

^{١٢} باشلار، جاستون ، جماليات المكان، ت غالب هلسا، بغداد، ١٩٨٠، ص ٢٣٥.
^(١٣) برديانف ، نيقولا، العزلة والمجتمع، ت فؤاد كامل، القاهرة ١٩٦٠ مكتبة النهضة المصرية ، ص ١١٤.
^(١٤) ينظر: نفسه، ص ١١٩.

(الرواية ص ٧٢) وقد كان سليم على خطأ حقاً كما يقول هو في نهاية الفصل، أي بعد انتهاء الرواية، لأننا سنكتشف أنّ جورج هو الوحيد تقريباً الذي خرج سالماً في نهاية، واستطاع أن يخفف من أثر الاغتراب.

ويبدو لنا أنّ شخصية سليم كاظم وبسبب الاغتراب تعاني من التناقض الداخلي . دون أن يشعر هو بذلك . لقد تعرفنا إليه بوصفه مثقفاً كبيراً من خلال حفظه لعدد من القصائد، واستشهاده بها في الرواية، وكذلك قراءته لعدد من الروايات، فضلاً عن درجته العلمية بوصفه ماجستير في الأدب الانكليزي، لكنه يقبل الذهاب مع صديقه فرحان إلى عيادة الطب الصيني في مسقط، وهو يعلم أنّ هذه العيادة ليس سوى بيت للدعارة، وعندما يمارس الجنس مع الفتاة الصينية المغتربة مكانياً لا نجد منه تأنيباً للضمير، لأنّ هذه الفتاة ليست سوى رقيق أبيض، وهي تمارس الجنس بوصفه رزقاً لها " وأخرجت من محفظتي عشرة ريالات، تساءلت عيناها عن المبلغ المتبقي فقلت دون أن ابتسم: كلها لك. تقدمت مني وقبلتني على شفتي قبلة خاطفة وهي تعبر عن شكرها ... " (الرواية ص ١١٣) لقد قبل سليم كاظم بهذه المتعة الرخيصة أو المغامرة كما يسميها استناداً إلى رأي صديقه فرحان " المغامرة هي ما يدجن المنفى " (الرواية ص ١١٨) لكن فرحان جابر استطاع أن ينجو من مزالق الاغتراب من خلال مغامراته الجنسية كما سنرى. ولقد غدا الوطن مغترباً أيضاً في هذه الرواية، فمعلومات الآخرين عن العراق مضطربة وغير صحيحة، بدءاً من سعيد المخيني صاحب البناية التي استأجر سليم الشقة فيها، مروراً بتدريسي قسم اللغة الانكليزية (الأجانب والعرب) بجامعة صور، وانتهاءً بصديقه ساندرا التي مارس الجنس معها بوصفها صديقة، وكل الأحداث الأمنية والمعلومات الأسرية تصله عبر اخته إنعام على شكل رسائل في البريد الالكتروني، أو عبر المحادثة التي تتيحها الشبكة، أو بوساطة التلفون " أدركت إن إنعام كانت على الخط في بغداد ... سرني أن أتحدث إليها واسمع آخر الأخبار عن الحالة المتفجرة في بغداد، وكانت صورة إنعام على الشاشة تغيم وتسطع لأسباب مجهولة " (الرواية ص ٧٣) ولكن إنعام لا تنقل له إلا أخبار وطن مغترب هو الآخر!!

ويعاني سليم كاظم من الاغتراب السياسي مع الآخرين جعله ينكمش حول نفسه خارج أوقات العمل " وكل تواصل مع العراقيين أو العرب حولي ينتهي إلى تملل " (الرواية ص ٤٠) ويفسر سبب الاغتراب السياسي بقوله " إن الفرد ينزف قدراً من خصوصيته يتناسب مع مقدار تأزم الوضع السياسي في بلده " (الرواية ص ٤٣) ويبدو أنّ الحوارات السياسية والدينية والجنسية الممنوعة في مكان عام بحسب توجيهات الكلية قد خفف من مظاهر الاغتراب السياسي عنده.

ويعاني العراقيّ فرحان جابر من الاغتراب الذاتي والمكاني؛ لأنه يعمل في إحدى شركات النفط في الصحراء، لكنه، ولكي يتخلص من وطأة الاغتراب يتوفر على طاقة عالية من التكتيت والمسامرة، وهو حريص على العلاقات العامة، وحريص على اللقاء والاندماج مع الناس (وهي صفات لا تتلاءم مع سليم ونفسه الحساسة، كما

اعترف هو) ولفرحان ميل قوي إلى الغاء السياسة بوصفها " دوخة رأس " وله ولع أيضاً بالمغامرات النسائية، ويكفي أنّ الصفتين الاخيرتين تتوافقان مع حساسية سليم المتوترة، والصفة الاخيرة كفيلة أن تشبع رغبة سليم التوافق لبث الحياة في الجسد المعلق منذ سنين! حيث يقومان معاً بزيارة الى عيادة للتدليك والطب الصيني. لذلك يبدو أنّ فرحان شخصية غير متأثرة بالاغتراب، وكأنه أخذ بنصيحة صاحبة الحانة لكلامش. أما شهاب زيدان فهو الوجه الآخر لسليم كاظم، وهو بطل الرواية في الحقيقة، والرواية تبدأ به وتنتهي به، على الرغم من أننا لا نلتقي بشهاب زيدان مباشرة، وكل المعلومات عنه تصلنا عبر رسائله إلى سليم كاظم، أو رسائل سليم إليه أو ما كتب من يوميات عن حياتهما معاً منذ السبعينيات. لقد غاب شهاب زيدان عن المشاركة في الرواية تماماً، حتى حديث شهاب في المكالمات التلفونية حيث طلبه سليم قبل بداية الإعصار غونو يروى عن طريق سليم فقط " فوجئت عندما أجب دون إبطاء، بادرني بعد التحية بالسؤال عن أخبار الإعصار، ... قال إنه منهمك في التحضيرات لمهرجان أدبي ... " (الرواية ص ٤٢٤)

في إحدى رسائله التي كتبها بالإنكليزية! يجد شهاب نفسه غريباً " عزيزي سليم، أعذر كثيراً عن التأخر في الرد فأنا أجد نفسي ضائعاً في محيط العمل المشتت ... حتى إنني أفكر جدياً في الابتعاد إلى حين ... نحن الذين لا سلاح لنا إلا الكلمة ... " (الرواية ص ٢١٣) ونلاحظ هنا أنّ كتابة الرسالة باللغة الانكليزية بين شخصين عراقيين هو نوع من الاغتراب، فضلاً عن الاغتراب الثقافي للذين لا سلاح لهم في عصر صار السلاح فيه هو الحل!

ويبدو للقارئ أنّ سليم كاظم وشهاب زيدان شخصية واحدة تمثلها مفارقة عجيبة، ففي الرسالة الطويلة التي يكتبها سليم إلى شهاب يحس وكأنه كتبها إلى نفسه " أخي العزيز شهاب، عودتك ومنفاي يمثلان مفارقة عجيبة لا أكف عن تأملها ... كنت أنا أعمل في جريدة الحزب ولا أرى للفكر معنى دون اقتران بالممارسة بينما كنت أنت تصر على أن المثقف لا يحقق استقلاله وقدرته على النقد ألا إذا تعالى على التجربة الحزبية ... وحين جمع بيننا حبيب محمود عام ١٩٧٥ قال إنه وجدنا وجهين لعملة واحدة ... كيف تبادلنا المواقع في كل شيء فصرت أنا سجين المنفى وأنت مشتبكاً مع فوضى الوطن وصرت أنا مصراً على النأي بنفسني عن أية تجربة حزبية لاقتناعي أن المثقف يخسر داخل الأحزاب أثمن ما يملك وهو القدرة على النقد ... بينما أنت تصر اليوم على أن الحزب وسيلة الفعل الأمثل وأن أي نشاط فكري منفرد لا قيمة له ولا اثر " (الرواية ص ٢٥٥ . ٢٦٠) وفعلاً كأنّ الرسالة كتبها سليم كاظم إلى نفسه؛ لأنها مونولوج داخلي استغرق ست صفحات، ليكشف عن مسيرة حياة امتدت منذ بداية السبعينيات حتى الزمن الذي تجري به أحداث الرواية، ويبدو الفرد في هذه السنوات وكأنه مستلب الإرادة، وفي حيرة دائمة، وأنّ السلطة والأحزاب المعارضة أقوى من الفرد، وأنّه لا يحق له الاعتراض على القرارات

التي تتخذها الدولة، أو الأحزاب المعارضة التي ينتمي إليها الفرد، وأنَّ الفرد يستبدل تبعيته ما بين السلطة والمعارضة عن طريق الإكراه " كنت أسأل في جوف الخندق المظلم الخانق عن إجابة لسؤال بسيط: من يمثل قوى التقدم ومن يمثل قوى الرجعية والتخلف؟ ... " (الرواية ص ٢٥٨) ومن الواضح أنَّ الرسالة تصور حالات اغتراب عديدة، تشمل المجتمع فضلاً عن الفرد. وثمة إشارة أخرى توحى للقارئ أنَّ الشخصيتين هما شخصية واحدة، فقد اشار سليم في رسالته الأولى إلى شهاب إلى رواية (قلب الظلام) لكونراد، دون أن يقرأ مقالة شهاب عن المنفى، وكان شهاب قد كتب مقالة قبل ذلك عن أسباب عودته العراق بعنوان (العودة من المنفى) وأرسلها ردًا على رسالته الأخيرة.

وتعاني ساندرا المدرسة القادمة من أستراليا من الغربة الذاتية في بلدتها الصغيرة، فتأتي إلى عُمان لتعاني من الغربة المكانية والاجتماعية " عشتُ لخمس سنوات متفرغة للعناية بابني ببلي ... هل تصدق أنني عشت تلك السنوات أتنقل في المدينة طولاً وعرضاً دون أن اسمع كلمة إطراء أو غزل من رجل قط؟ " (الرواية ص ١٢٢)

ومن مظاهر الاغتراب، أن تعيش الشخصية في عدوانية ونفور دائم مع الآخرين، ويمثل الدكتور حاكم هذه الشخصية، وعلى الرغم من عراقيتهما، ومن المعرفة السابقة بينه وبين سليم في جامعة الفاتح في ليبيا، إلا أنهما لم يجدا ايّ طريق للتقارب بينهما، وكان يضع سليم تحت مراقبته كما اكتشف فيما بعد " شعرت بمزيج غريب من الغضب المستطير من حاكم... وأيقنت إنني فقدت الشعور بالأمان وأن كل ما أفعل مرصود رصدًا دقيقاً " (الرواية ص ٣٠٨) وعندما كان الدكتور حاكم رئيساً للقسم لمدة عامين، يخبرنا الدكتور زكي خليل: " نقتا في خلالهما الويل، لم يكن يكف عن القفز إلى مكتب العميد حاملا التقارير التي تدين الأساتذة لسبب ودون سبب " (الرواية ص ١٧٧) وتعاني أريكا القادمة من بريطانيا من الاغتراب الذاتي في بلدها بسبب بلوغها الثلاثين من العمر " وأنت تعلم ما تعنيه الثلاثون من قلق بالنسبة إلى المرأة، شعور بالوحدة والحاجة إلى الاستقرار " لذلك قررت أن تعمل في عُمان " لرغبتي في الخروج من روتين وجودي هناك " (الرواية ص ١٣٩) لكن أريكا لا تستطيع أن تتكيف مع المنفى الجديد لها، وتعاني هنا من الاغتراب الاجتماعي، والمغترب هنا من يجتنب المجتمع وما يشيع فيه من معتقدات وينفصل عن الناس بوصفهم من عوامل ضياع ذاته الأصلية^{١٥}، لذلك لم تجد في مهنة التعليم تعويضاً عن روتين وجودها في بريطانيا، لذلك ترتبط مع مجموعة من الأصدقاء المغتربين اجتماعياً مثلها في السهر والشراب، كما نعرف من خلال الرواية، وفي الوقت نفسه ترتبط بصداقة خاصة (الحب) أو (السحاق) مع

^{١٥} رجب، محمود، مصدر سابق، ص ٤٤.

ستورمي زميلتها الأمريكية ذات الأصول الجمايكية، لكننا لا نعرف هذه العلاقة إلا من خلال ساندرا وهي تحاول أن تبعد سليم كاظم عنها " نعم، وهما تقضيان معظم ساعات النهار والليل معاً " (الرواية ص ١٦٦)

وتعاني التدريسية العراقية الدكتورة بتول من الاغتراب الذاتي والعاطفي فهي التدريسية العراقية الوحيدة في الكلية، وزوجها ليس معها " ظلت تبدو في ثيابها التي يغلب عليها اللون الأسود الغامق ميالة إلى الانسحاب والتمترس خلف تهذيب مبالغ فيه، أما وجهها فعلى النقيض من ملابسها ... " (الرواية ص ٢٤٠) وعندما يسألها سليم كاظم عن سبب سعيها إلى الهجرة إلى كندا تجيبه : " هنالك أسباب كثيرة، أريد أولاً أن أعيش في بلد بعيد عن مآسي العراق ومآسي العرب أجمعين، نحن نعيش في عالم خائق هنا، وحتى لو عدت إلى العراق وضمنت سلامتي فإن الخراب الذي حل بالبلاد لم يترك لي أملاً في إمكانية السعادة هناك " (الرواية ص ٢٤٤) ومع أنها مطلقة، أو في طريقها إلى الطلاق الآن كما سنكتشف في نهاية الرواية، فإنها تخفي ذلك " زوجي وولدي وابنتي يعيشون في العراق الآن " (الرواية ص ٢٤٤) وعندما يخبرها سليم أنه انفصل عن زوجته وليس لديه أطفال تهتف قائلة " كم أنت محظوظ! تخلصت من كل مصادر وجع الرأس وتحققت لك الحرية الكاملة " (الرواية ص ٢٤٤) ويستطيع القارئ بسهولة أن يتبين أن ثمة عدم انسجام بينها وبين زوجها، فهي ترى " الوحدة هي السبيل الوحيد إلى الراحة والمشاعر السعيدة، وبعد عودة زوجي إلى العراق تذوقت الوحدة لأول مرة " (الرواية ص ١٤٥) ولكن الدكتورة بتول تستطيع السيطرة على قراراتها، ولا يبدو أن الاغتراب قد أثر في سلوكها، ولا يكتشف أحد ما الحياة الخاصة التي تعيشها. يتواصل سليم مع بتول تواصلاً صامتاً عبر الشبكة العنكبوتية من خلال إرسال رسائل قصيرة جداً مكتوبة بالإنكليزية مثل "مساء الخير" فيرد عليها: " مساء الخير، كيف حالك؟ بقيت أنتظر لثوان فلم يأت الرد وامتدت الثواني إلى دقائق " (الرواية ص ٣٣٦) وفي إحدى المرات تترك رسالة له على الشبكة تطلب منه سماع أغنية أم كلثوم أراك عصي الدمع ... لأبي فراس الحمداني، وكان قد سبق ذلك تواصلاً تلفونيا بينهما أذ طلبته بتول لتخبره أن الدكتور حاكم قد حذرهما من التقارب معه بعد أن لمحها خارجاً من مكتبها في الكلية. وبعد الاعصار وتقطع الطرق يلتقي سليم مع بتول مصادفة قرب شارع رئيس مقطوع، ونكتشف معلومات أكثر عن حب بتول للوحدة، فقد رفضت التوجه إلى بيت رئيس القسم للبقاء مع عائلته "تعددت حياة الوحدة حتى صارت عبارات المجاملة والتعارف ترهقني " (الرواية ص ٤٤٣) وعندما تبقى مستيقظة حتى الصباح وحدها في غرفة الصف في إحدى المدارس المخصصة ملجأً من الإعصار تعمد إلى حشو أذنيها بالقطن لكي تخفف من شدة الأصوات.

يستطيع سليم كاظم إيصالها بسيارتها إلى شقتها عبر طريق ساحلي خطر مليء بالحفر التي خلفها الإعصار، ويساعدها في ترتيب الشقة، وفي الشقة نستطيع التعرف على أسرار اغتراب الدكتورة بتول أكثر، لقد تزوجت وهي في السادسة عشرة من العمر بزوجها " كنت طفلة وعندما بدأت أفكر واكتشف من أكون كرهته كرهاً شديداً، كرهت

حماسته الجوفاء للحروب ... وهو يعمل لحساب الأمن العسكري ... " (الرواية ص ٤٥٦) ونكتشف أيضاً أنها استطاعت أن تحصل على الطلاق في بداية هذا العام، وعن طريق المصادفة أيضاً يكتشف سليم أنّ في ثلاجتها زجاجة ويسكي أسكتلندي ممثلة إلى النصف! ثم يتبادلان الأنخاب بعد أن يقسم لها أنّ ما عرفه عنها سيبقى سرّاً إلى الأبد. وهنا يبدو وكأنّ الاعصار الذي كشف عن الشوارع الرخوة في المدينة استطاع أن يكشف عن المخبوء عند المغترين!!

ومن الشخصيات المغترية الأخرى، هو الدكتور الفلسطيني زكي خليل الحاصل على شهادة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة مغمورة في الفلبين، ويبدو الدكتور زكي في الرواية فضولياً، يصفه سليم " كان مولعاً بالحوار وبالمعلومة يصغي بانتباه شديد لأتفه الأحاديث لأن ما يسعى إليه يقع بين السطور أو خلفها وهو يخزن المعلومة ... ليستخدمها بعد أشهر في إثبات أن المتحدث قد ناقض نفسه " (الرواية ص ٤٤) وفي أول لقاء بينهما يلعب دور الخاطبة بعد أن عرف أنّ سليم قد طلق زوجته، ولكن خليل له هدف آخر من الحوار قال " إن رجال العراق كبار حتى وهم وراء القضبان، وإن الأسد يزأر وهو في قيوده فيرعب الجرذان ... " (الرواية ص ٥٠) وطيلة أحداث الرواية لا يصدر عن زكي خليل أي تبرم بالمكان أو الأشخاص، ولا يبدو عليه أي إحساس بالاغتراب، سوى ما يكتشفه سليم كاظم فيه من لصوصية في تصيد الأخبار. ولكن قبل انتهاء الرواية وأمام سليم بوصفه منسقاً للقسم يكشف المدرس البريطاني أريك جونسون عن غش في دفترين امتحانيين، ويقول إنّ الخط يعود إلى زكي خليل! وهنا نكتشف من خلال الحوار أنّ الخط يعود إلى زكي خليل فعلاً؛ لكنه من الحذاقة بحيث استطاع أن ينقل رسالة تهديد واضحة إن تواصل التحقيق " فكر في الأمر سليم، إثارة زوبعة لن تنفع أحداً " (الرواية ص ٤٠١)

لقد نجح زكي خليل في أن يخفف من اغترابه المكاني والذاتي من خلال إقامة شبكة من العلاقات مع المتنفذين في المدينة، فوالد أحد الطالبين ضابط الشرطة ووالد الثاني شيخ معروف، وزوجته تقدم في بيتها دروساً مدفوعة الثمن لبنات الأسر المنتفذة في المدينة. ولكن نجاحه قائم على التناقض في تصرفاته، ففي الوقت الذي يقدم فيه خدماته الخيرية للعزاب والعازبات لتزويجهم، نكتشف إنه يقيم هذه الشبكة من العلاقات الانتهازية من أجل بقائه في الكلية وعدم إنهاء عقده، وكان زكي خليل مصاب بنوع من الفوبيا ويحاول البقاء في مكانه خوف أن يفشل في مكان آخر. ويدفع الاغتراب المكاني والاجتماعي إلى السكر والعريضة، كما يحدث عند رالف فيليب القادم من جنوب إفريقيا، ففي أول يوم من وصوله يتساءل عن كيفية تقضية الوقت، وأماكن الباربات ودور السينما!!! ثم يرتاح عندما يعرف أنّ للأجانب إجازة في شراء الشراب، ومع ذلك يبقى متأخراً عن الدوام ومتغيباً، ثم يكون سبباً غير مباشر في موت أريكا بعد جلسة سكر على سطح البناية. ويدفع الاغتراب الذاتي عند أريك جونسون الذي مل

من عمله في التمريض ومشاجراته مع مدير القسم في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية في بريطانية أن يزور شهادته ليلتحق مدرساً في جامعة صور، لكنه يبقى متماسكاً بعد انكشاف أمره " نعم هو أمر صحيح وليس أمامي إلا الاعتذار" (الرواية ص ٣٠١)

ويستطيع الباحث الآن أن يصل إلى المعطيات الفكرية والنفسية في الرواية، وهي أنّ الفكرة المحورية في الرواية هي صراع الفرد ضد السلطة، وتتمثل هذه السلطة في الحكومات الفاسدة والأحزاب المعارضة للسلطة التي ترتكب أخطاءً لا تقل فساداً عن السلطة، ثم صراع الفرد ضد قوى اجتماعية واقتصادية مختلفة، وأخيراً صراعه مع الطبيعة عندما تغضب.

وقد استطاع الروائي أن يبني مسرحاً في المنفى ويجمع فيه عدداً كبيراً من المنفيين طوعاً، وكرهاً ليعرض أمامنا هذا الصراع. لقد اضطر شهاب زيدان أن يغادر العراق في العام ١٩٧٩ نتيجة لاغترابه السياسي مع النظام القائم، واستطاع أن يتزوج من امرأة بلجيكية، وأن ينجب منها طفلاً، وأن يحصل على الجنسية البلجيكية، وأن ينجو من بطش النظام بالأحزاب المعارضة، ومن حرب الخليج الأولى، ولكنه يصطدم بالغربة في المنفى الاختياري! " لكنني لم أتمكن من التخلص من عراقيتي هناك " (الرواية ص ٢١٣) أما سليم كاظم فيبقى في العراق ويساق إلى حرب مجنونة، ويتعرض للموت مرات عديدة، ثم يتوصل إلى أنّ خلاص الإنسان هو خلاص فردي، ولا بد من المغامرة للخلاص، فيقدم للدراسات العليا رغم ما يحمله هذا التقديم من نبش لماضييه السياسي، لكنه ينجح في التخلص من الحرب ويقبل في قسم الدراسات العليا، لكنه يواجه مشكلات أخرى: الحصار والوضع الأمني الهش بعد العام ٢٠٠٣ أحد أسباب نفية الطوعي خارج العراق، لكن الصراع الطائفي يواجهه في المنفى أيضاً، ويبقى متهماً من قبل الكثيرين. وتشير الرواية إلى عبثية الوجود من خلال الوفاة الغامضة لأريكا، وتجاهل الشرطة العمانية لأسباب وفاتها الحقيقية، وكأنها لا تدقق كثيراً في الأمر على الرغم من أن سبب السقوط كان بسبب السكر الشديد وعدم السيطرة على الحركات أثناء عبور جسر غير نظامي على سطح البناية. لقد حملت الرواية الكثير من الأسئلة حول مصير الإنسان وأمنه في عالم سياسي وعسكري تتصارع فيه قوى محلية وكبرى من أجل مصالح ربما لا تكون مفهومة للفرد.

المبحث الثالث: التقنيات السردية ودورها في إبراز تجربة الاغتراب

من المكونات الأساسية للخطاب الروائي هي البنية السردية بتقنياتها المتعددة، وقد استطاع الباحث تحديد عدد من التقنيات الروائية التي استخدمها الكاتب محاولة منه لإبراز تجربة الاغتراب في الرواية، وأول عنصر سردي يمكن الإشارة إليه هو الراوي، إذ تكونت الرواية من ثلاثة وستين فصلاً قام بروايتها كلها سليم كاظم بصيغة الراوي

بضمير المتكلم، وقد عكس هذا الايقاع الرتيب، رتابة الحياة ووحدها وغربتها أيضاً، وكأن لا شخص في العالم يشارك سليم كاظم نقل هذه الغربة الروائية! ومما لا شك فيه أنّ اللغة الروائية قادرة على نقل الدلالات الاغترابية بما تحمله من احياءات، فقد تكررت في الرواية الكثير من المفردات المحملة بمعاني الغربة والمنفى والضياع والتشتت والحزن والموت " إذا تعين عليك أن تشير إلى شيء أكثر من مرة، ينبغي لك أن تبحث على طرق بديلة لوصفه، كما يجب أن تخلع على تركيبك اللغوي القدر نفسه من التنوع"^{١٦} ومن الواضح أنّ تلك المفردات تستمد دلالتها من خلال السياق الذي تظهر به " فالبشرية تبقى قرينة السؤال والقلق والخلاف ، حتى الأحبة ... صاروا مصدر ألم وأفق غياب" (الرواية ص ٣٩) ويبدو للقارئ هنا أنّ الاحساس بالاغتراب عند سليم كاظم قد تصاعد حتى وصل إلى البشرية. وغالباً ما يحس سليم بالاختناق حتى لو كان في شقة جميلة: " فتحت باب الشقة في وجوم المساء وسخونة الممر المثقلة بالرطوبة ثقلاً خانقاً" (الرواية ص ٧٣) أما هذا المقطع الأخير من الرواية فيلخص الصورة الأخيرة لشخصياتها: " كانت القنفاذ تتحصن في زواياها المتباعدة على وجه الأرض" (الرواية ص ٤٩٢)

ومن دلالات الاغتراب الأخرى، هي العتبات النصية التي وضعها الكاتب قبل بداية الرواية بعنوان (عن القنفاذ) إذ اختار المؤلف فقرات من بعض الكتب والمقالات لتبين طبيعة القنفاذ وما تتخذه من أشكال عند مواجهة الطوارئ، ويبدو الاغتراب واضحاً من الفقرة المستلة من كتاب (ملاحق ومحدّوف) لشوبنهاور " اما الإنسان الذي يختزن داخله بعض الحرارة فيفضل البقاء منفرداً، حيث لا يخز أحداً بشوكة ولا يسمح لأحد أن يخزه" (الرواية ص ٨) ولكن شخصيات الرواية المغتربة كالقنفاذ لا تستطيع أن تتفصل عن بعضها حتى تخز بعضها بعضاً لدرجة الادماء!

ومن التقنيات السردية التي وظفها الكاتب لإبراز تجربة الاغتراب هي الإشارة إلى عدد كثير من الكتاب والشعراء والفنانين الذين عانوا من تجربة الاغتراب، فضلاً عن تحليل سليم كاظم فهناك إشارة إلى لوركا من خلال بيته الشهير (الموت نزفاً خيرٌ من الحياة بدم فاسد) ص ٨٤. وهناك إشارة إلى جوليان سوريل بطل رواية (الأحمر والأسود) لستندال، ومن المعروف أنّ جوليان قد عاني من الاغتراب الاجتماعي والعاطفي، وفكر في الانتحار علاجاً لمشكلته. وهناك إشارة إلى الجاحظ ورسالته (الحنين إلى الأوطان) ص ٢٥٣. وهناك أيضاً إشارة إلى قصة قصيرة للكاتبة دوريس لسنغ بعنوان (الغرفة ١٩) وهي قصة امرأة تحس بالاغتراب فتنتحر!! ص ٢٨٩. وإشارات أخرى إلى السياب، وأبي فراس الحمداني، وجوزيف كونراد في روايته (قلب الظلام) التي تمثل صراع إرادة الانسان

^{١٦} لودج، ديفيد، الفن الروائي، ت ماهر البطوطي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص ١٠٢.

مع الطبيعة، ومدى ثباته عندما يصطدم مع الشر الكامن عند الانسان الآخر، وتدور أحداث الرواية في مركب قديم يصل إلى قلب الغابة بصعوبة. ويتماهاى سليم كاظم مع محمود سعيد من خلال تحليله لرواية الطبيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال) التي قرأها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، واليوم يجد فيها فكرة محورية لم تخطر على باله من قبل " بطل الرواية مصطفى سعيد ... شخصية مركبة حيرت النقاد ... وقد عانى من الجفاف العاطفي منذ طفولته ... وفي ذلك إشارة إلى أن العقل الحاد يجفف القلب ... لكن مأساة سعيد إنه لا يستطيع الانخراط في حياة القرية ... وهو شخص ضائع بلا هوية " (الرواية ص ٢١٧.٢١٨) ونستطيع بسهولة أن نلاحظ أن سليم كاظم لا شعورياً يسقط شخصية مصطفى سعيد على نفسه؛ لأنه شخصية مركبة أيضاً، وقد عانى من الجفاف العاطفي؛ ولكن ليس في طفولته بل منذ زواجه الفاشل، ومأساته أنه لا يستطيع الانخراط في حياة المنفى أو الوطن، وسليم كاظم شخص ضائع بلا هوية، حتى الزمن لا قيمة له عنده! لذلك وهو يقف في شرفة الشقة ويتطلع إلى الشارع ترددت في رأسه "عبارة الراوي وهو في طريقه إلى الخرطوم عبر صحراء جافة حارقة : " اليوم هنا لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل " (الرواية ص ٢١٨) بل أنه يجد تشابهاً بين جد مصطفى سعيد ووالدته " نعم حياة والدتي وأهلي منذ عقود طويلة لا تعدو غريزة البقاء البدائية الزاهدة في كل شيء، من هنا قوتها وتشبثها وفجيعتها " (الرواية ص ٢١٩) ويبدو أن سليم قد توصل إلى علاج لمشكلة الاغتراب عن طريق شخصيات تشيكوف، ولكنه لم يستطع إن يطبق هذا العلاج جيداً " قلت لنفسى إن حاكم خارج من إحدى قصص تشيكوف دون شك، وتذكرت إصرار شخصيات تشيكوف وهي تصارع الملل والخواء واللامعنى على أن العمل والعمل وحده هو العلاج الناجع " (الرواية ص ٣٦٥)

أما ساندرا فتستحضر مسرحية (في انتظار غودو) لبيكيت عندما يسألها سليم حول كيفية تمضيبتها لوقتها تجيبه: القراءة، ويجرهما الحوار إلى المسرحية، لقد عشقت ساندرا تلك المسرحية " لأنها تعبر تعبيراً دقيقاً عن حالتي المضجرة في تلك المدينة الصغيرة، الانتظار قدربنا جميعاً، حياتنا انتظار طويل ... " (الرواية ص ١٢٣) ومن المعروف أن مسرحية (في انتظار غودو) تمثل غربة الانسان وعبثية وجوده في مجتمع لا يستطيع أن يتألف معه.

ومن التقنيات التي استخدمتها الرواية هو تيار الوعي، أو تداعي الذاكرة، وهي التقنية التي اشتهرت بها فرجينيا ولف في رواية (السيدة دالواي) ووليم فوكنر في (الصخب والعنف) ويركز تيار الوعي على الانطباعات التي تحدث والذكريات التي تمر بذهن الراوي وهو يسرد الأحداث، وتتيح هذه التقنية للكاتب " إن يصور لنا الحياة كما تتصوره تلك الشخصية ، وأن يكشف عن نظرة الشخصية إلى الشخصيات الأخرى وبالعكس وهكذا يرسم لنا معالم الشخصية من خلال عالمها الشعوري واللاشعوري ومن خلال الأضواء التي تلقيها الشخصيات الأخرى عليها،

وبهذا يقدم لنا صورة تتضح بالطرافة والألفة والصدق " ^{١٧} استطاع هذا الكاتب أن يستخدم هذه التقنية أولاً في الكشف عن مخزونه الثقافي والمعرفي " وأعني هنا ذاكرتي المأزومة الملتاعة بعد ما حدث، أما ذاكرة مارسيل بروسست مثلاً التي كانت تنشط على غير موعدٍ بتلقائية كاملة ... " (الرواية ص ٢٧) وعندما يحاول أن يصف جورج حداد فإنه يستحضر معلوماته عن الهوية والتناقض واكتساب اللغات والكولونالية. (ص ٧٧)

وأدى استخدام تيار الوعي عند الراوي إلى تقديم صورة ممتعة عن مغامرته الجنسية في عيادة الطب الصيني " ولم تتأخر في مد يدها إلى هناك ... بينما أنا كنت أتلوى تحت موجات الانتشاء المتصاعدة في جسدي كله ... لكن ذلك لم يمنعني من بلوغ الذروة بين يديها " ثم يجد نفسه وهو يردد مقطعاً من قصيدة السياب " عراق ... عراق، ليس سوى عراق "

وبعد أن يصل إليه خبر اغتيال شهاب زيدان فإن ذاكرته سرعان ما تقوده إلى يومياته التي كتبها في ١٩٧٦/٧ " بلغت أمس في حواراتي المطولة مع شهاب نقطة الخلاف المتعلقة بترده في الانتماء إلى تنظيم سياسي ... " (الرواية ص ٤٨٩) فلقد كانت تلك اليوميات بمثابة تفسير لما حدث لشهاب، ورسمًا لشخصيته التي لا يدركها شهاب نفسه. وكلما ينتقل سليم إلى بلد جديد تظل والدته معه " تكرر سؤالها إن كان معي عراقيون ... " (الرواية ص ٥١) ويشير هذا التداعي إلى مدى ارتباط سليم بوالدته التي ترمز إلى الأمان أو الوطن أو الاستقرار مقابل الغربة التي يحياها.

ولعل تقنية تيار الوعي تكون أكثر بروزاً في الرسائل المتبادلة بين سليم وشهاب فهما لا يتحدثان عن الحاضر بل تعود بهما الذاكرة إلى أيان السبعينيات، وإلى مخزونهما الثقافي والمعرفي، وفي الرسائل يكتشف شهاب بعض أخطائهما، يكتب سليم في رسالته " ... الطعنة الثانية ، وأنا أحاول هنا تلمس الجراح التي نزفت منها أحلامي القديمة ... وهذه المرة لم تكن الطعنة موجهة إلى اقتناعي بحزب سقط في الخطأ ... " (الرواية ص ٢٥٧) وفي الرسالة نفسها يجد " أن العالم أقرب إلى تهكم نيتشة وارتعاش كيركغارد أمام لاعقلانية الوجود الوجود ، وجدت أن قراءة كيركغارد لقصة النبي إبراهيم وتضحيته بالكبش بدلاً من ابنه اسحاق بليغة وصادقة ... " (الرواية ص ٢٥٩)

يكشف تيار الوعي عن هم تأريخي ثقيل يحمله سليم كاظم أين ما حل، ويكشف أيضاً عن عجز المثقف أمام قوة العسكر وهيمنة الفعل السياسي الذي يطغى على الفعل الثقافي.

^{١٧} نجم، محمد يوسف، فن القصة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٦، ص ٧٠.

الخاتمة

خلص البحث إلى نتائج عديدة منها:

- تعد ظاهرة الاغتراب من الظواهر المهيمنة على الرواية واثرت في اتجاهها الفني.
- إن الواقع الذي عاشه الفرد العراقي في ظل التغيرات السياسية والعسكرية في العراق والمنطقة، يشكل حاجزاً أمام الفرد في التواصل مع الآخرين.
- تكشف الرواية عن ضعف الفرد في الغربة وتحكم السلطة بحياته الخاصة، وغالباً ما يناقض الفرد نفسه دون أن يشعر.
- يعد الاغتراب عن الذات أكثر أنماط الاغتراب هيمنة.
- تكشف الرواية أن بعض الشخصيات استطاعت أن تتغلب على حالات اغترابها عن طريق تعويض الاغتراب بالعمل أو الجنس أو الانصهار مع المجتمع الجديد وتقبل قوانينه، فيما بقيت شخصيات أخرى تحس بغربتها دون أن تقدم تنازلات لتقلل من هيمنة الاغتراب.

المصادر

- . ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، ط٣، مج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- . باشلار، جاستون، جماليات المكان، ت غالب هلسا، بغداد، ١٩٨٠.
- . بردبائف، نيقولاى، العزلة والمجتمع، ت فؤاد كامل، القاهرة ١٩٦٠ مكتبة النهضة المصرية.
- . بركات، د. حليم، الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.
- . رجب، محمود، الاغتراب سيرة ومصطلح، القاهرة، دار المعارف، ط٤ ١٩٩٣.
- . رحيم، فلاح، القناذل في يوم ساخن، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٢.
- . شاخت، ريتشارد: الاغتراب، ت كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- . العدوانى د. احمد: الاغتراب، مجلة عالم الفكر، ١٩٧٩، مج ١٠، ع ١.
- . لودج، ديفيد، الفن الروائي، ت ماهر البطوطي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢.
- . مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط٤، ٢٠٠٤.
- . نجم، محمد يوسف، فن القصة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٦.
- . هوبز، توماس، اللفيانثان، ت داينا حرب ويشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والاعلام (كلمة) ودار الفارابي، ٢٠١١.
- . ولسون، كولن، اللانتمى، ت أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤.